

فيلم «هاريت» سيرة ذاتية عن العبيد العابرين إلى الحرية

معركة الحقوق المدنية للسود في أميركا تقودها امرأة



صورة الإنسان وهو ينتقل من العبودية إلى فضاء الحرية هي صورة مثالية ظلت تلخص واقع مجتمعات غارقة في التمييز والعنصرية. واليوم أكثر من أي وقت مضى تتم مراجعة ذلك التاريخ المخزي للإذلال العنصري والتمييز العرقي في أميركا كما يتم تسليط الضوء على رموز ليسوا عابرين في تاريخ الإنسانية ومنهم هاريت توبمان من الذين عاشوا فصول تلك التراجم الكارثية وبقوا شهداء عليها.

طاهر علوان
كاتب عراقي

يقدم فيلم «هاريت توبمان» للمخرجة كاسي ليمونز الفصول الأكثر إثارة في تاريخ العبودية الراهنة لقرون في العقل الجمعي للمجتمع الأميركي وهو التاريخ الحافل بالضحايا والدماء والأحزان.

في مقاربة تجمع ما بين الدراما والسيرة الذاتية والتاريخ نغوص المخرجة عميقاً في واقع المجتمع الأميركي القائم على الطبقات ونظام البرق وذلك في القرن التاسع عشر. وكان ذلك الواقع الكابوسي بمثابة قدر لا سبيل سوى التسليم به لاسيما وأنه مدعوم بتشريعات وقوانين صارمة وتطبيق لا يعرف الرحمة على الخارجين عليه.

صلوات السود

مشهد مألوف أن تسير أفواج السود وهم مقرنون بالأصفاد في أيديهم وأرجلهم ورقابهم ويتم بيعهم والمتاجر بهم بين مزارع البورجوازيين البيض الأميركيين، وحين يصبح امتلاك أكبر عدد من العبيد السود دلالة على مكانة اجتماعية رفيعة تستحق التباهي. تختار المخرجة نموذجاً صارخاً من تاريخ العبودية الأميركية هو جانب من سيرة هاريت الفتاة التي وجدت نفسها وهي في سن المراهقة تتشبث بأمل هش في أن تتحرر من العبودية، وقد خدمتها فرصة وعد مكتوب أعطاها جِد مالكاها الحالي من أسرة بورديس بعقبتها بعد أن تبلغ الـ14 من الخامسة والأربعين.

سيرة هاريت الفتاة التي وجدت نفسها وهي في سن المراهقة تتشبث بأمل هش في أن تتحرر من العبودية

في مشهد عاصف سوف يؤسس لاحقاً للسرد الفلمي والتصعيد الدرامي تنتظر هاريت قراراً مصيرياً من سيدها، لكنها لم تتوقع قط أن يمر ذلك الميثاق ويصرخ في وجه الجميع، إنكم عبيد وسوف تبغون كذلك إلى الأبد وملاكاً لي. شعور هاريت (الممثلة سينثيا إيريفو) بمرارة القهر بعد بيع شقيقتيها وإذلال والديها وضربها وهي صغيرة على رأسها من قبل مالكاها مما أدى إلى إصابتها

بعارض عصبي يشبه الصرع، كل ذلك يدعو هاريت إلى التماس الإرادة الإلهية للتخلص من ظلم السيد بورديس وحين تلاحقها سخرية ابنه بان الله لا يصغي لصلوات السود.

لفظ السيد بورديس انقاسه فتحلّ اللعنة على هاريت بانها وجه شؤم وسوء، ولهذا يقر الابن غيدوين (الممثل جو الوين) بيع هاريت فتقهر في الهروب، لكنها لن تجد من يساندها من أسرتها لتزحل وحيدة.

في مشهد الملاحقة على ظهور الخيل واستخدام الكلاب البوليسية تجسد هاريت نفسها محاصرة على جسر ومن ورائها ومن أمامها فوهات بنادق، ويجاوب بورديس الابن استمالتها لغنيها عن الهرب، لكنه لم يتوقع قط أنها سوف ترمي بنفسها في المياه الجارية لنهر عقيق، وبذلك تنتهي قصة هاريت بالنسبة إلى مالكاها.

تشاء الأقدار أن تجرف المياه هاريت وتصل حية إلى ضفة في أرض قفراء ومن هناك تبدأ رحلتها الجديدة إلى المجهول. كل تلك الرحلة المحفوفة بالخطر وحين تلاحق السلطات بلا هوادة العبيد الهاربين في كل مكان تصنع مشهداً جمعياً للصراع لا يجد فيه أحد متسعاً ليعيش حياته الطبيعية.

أسرة بورديس ترث الديون الثقيلة لكنها ديون لا علاقة لها بالعبيد ولا ذنب للعبيد فيها، لكنها تحال إلى العبيد وبما في ذلك بيع عدد من العبيد للتخلص من وطاة الإفلاس، ومن ثم يحضر العبيد في الحقول ينتجون من أجل غنى وترف سادتهم، وحتى القس يلقن العبيد فكرة مشيئة وهي

أن رضا الرب من رضا من يمتلك العبد وبذلك تغلغت العبودية المدنية لتكتمل الطوق.

تشكل الانتقالات المكانية عنصرها بالغ الأهمية في هذا الفيلم بسبب كثرتها وتنوعها وهو ما استثمرته المخرجة بشكل مميز من خلال التصوير في الحقول والأماكن المفتوحة، وخلال ذلك تتغير طبيعة المكان المرتبط بطبيعة الحياة والمباني في القرن التاسع عشر، ومن ذلك أن المخرجة تشير كتابة إلى تلك الانتقالات عندما تقع وخاصة لدى انتقال هاريت إلى ولاية فيلاديلفيا حيث تعثر على جمعية مهمتها استقبال أولئك العبيد الهاربين.

تتأسس بذلك الانتقال المكاني إلى العالم الجديد مساحة أوسع لحلم الحرية وبذلك تم تكريس فكرة الرغبة في الحياة بوصفها فطرة إنسانية لكي تتحول إلى دافع للمغامرة، وهي المغامرة التي لن تتوقف هاريت عن خوضها مهما خاضت من صعاب ومجازفات.

تتكامل من خلال هاريت علاقة اجتماعية تضم كلا من ماري (الممثلة جالين موناي) وويليام (الممثل ليسلي أودوم) وهما اللذان سوف يسندان مهمتها ويدافعان عنها وبذلك تم تأسيس حاضنة جديدة من أجل تصعيد درامي جديد وكان أحداث الفيلم قد تسارع إيقاعها مع ذلك التحول الجديد.

الحقيقة التاريخية

على هاريت خوض المغامرة إلى آخرها غير أبهة بالمخاطر، فهي تعود عبر الغابات متكررة وحين أنها المطلوب



ليس للعبيد من سبيل سوى التماس الحرية أو الموت في سبيلها

رحلة التحرر من الاستعباد

الحرب الأهلية بوصفها نقطة مفصلية فرضها استعباد السود والتشريعات والقوانين التي تقوّي شوكتهم من أجل المحافظة على نظام فريد ومشين للعبودية لا يمكن تغيير قوانينه.

شخصية هاريت توبمان على أنها ملهمة للأحرار، تلك هي الفكرة التي يتم رسمها والمرتبطة بسلميتها حد القدسية

وإذا تحدثنا عن شخصية المرأة المهمة فإننا في موازاة ذلك نتحدث عن شخصية درامية مميزة، قادرة على أن تكبح جماح عاطفتها الشخصية وأحلامها الخاصة من أجل إنقاذ الآخرين، وفكرة الإنقاذ هنا تتحول إلى دافع فكري ومعنوي يتم التأسيس عليه

سردياً في هذا الفيلم. والأمر لا يتعلق بتحرير هاريت المئات من العبيد وتمكنها من ربح خصوصاً بلا هوادة وصولاً إلى تهريب العبيد إلى كندا للخلاص من الاضطهاد وإنما يتسع إلى قضية وجدانية وإنسانية ترتبط بكفاح شعب حرّ دفع الكثير من أجل حريته، وهو ما أرادت هاريت إيصاله أن الفرد العاجز المستعبد بإمكانه أن يصنع معجزة تمرّه وثورته وتأسيس فكرة الحلم الثوري والإنساني التي سارت عليها انتفاضات السود ولا تزال، أن عندي حلماً وأن حياتنا ثمينة ومحترمة كحال حياة سائر البشر.

حظي الفيلم باهتمام نقدي ملحوظ وكتبت عنه العديد من الصحف الأميركية والبريطانية ونال العبيد من الجوائز وتم ترشيحه لنيل جائزة الأوسكار في التمثيل لهذا العام.

الدعوات المتصاعدة إلى شرس حرب لا هوادة فيها ضد العبيد الهاربين، وهو ما يتم سنه فعلاً ويكون قانوناً يدفع بالنتيجة إلى تحول السود إلى هدف ساغ وعرضة للقتل المجاني.

لعل تصعيد فكرة الصراع وتحولها إلى قدر يحيط بالشخصيات سوف يكون كافياً لأن يجعل الطرف الآخر في مواجهة مصيرية، وهو ما يدفع هاريت إلى تأسيس ما يشبه الميليشيا لمواجهة استهتار البيض وقوانينهم الجائرة.

الموت أو الحرية ولا طريق ثالثاً، ذلك الذي اختطته هاريت لنفسها وحين في أحلك المواقف وأصعبها، لن تتخلى هي عن سلميتها على خلاف خصومها، ومن ذلك المشهد الذي ترى فيه مالكاها السابق غيدوين وهو يركل ماري ويعنفها، وكان بإمكانها الإقتصاص منه، ولكنها لم تفعل، ثم وهي تحصل على استسلام غيدوين وهي مسلحة وهو أعزل، ومع ذلك فإنها لن تجهز عليه بالقتل وإنما تتركه ليواجه مصيره بشكل ما.

تبنى شخصية هاريت على أنها ملهمة للأحرار، تلك هي الفكرة التي يتم رسمها والمرتبطة بسلميتها، فضلاً عن إضفاء قدسية وكرامة لها في إيمانها الروحي العميق والاستجابة لدعائها للرب من أجل إنقاذ نفسها وبني

جلدتها، ومن ذلك أيضاً المشهد المؤثر لمحاولة عبورها النهر وخوف الآخرين من النزول خشية الغرق لتتحول دعواتها وصلواتها إلى حقيقة تتجلبها من الغرق وتدفع الآخرين إلى التصديق بها والعبور إلى عالم الحرية.

في إطار فكرة الصراع المتصاعد بين قوتي السود والبيض يتم تأسيس قاعدة اجتماعية موضوعية تجعل من فكرة الصراع هذه مجرد حتمية لا بد من الوصول بها بالتاريخ إلى التهديد والعقاب ثم المواجهة والانتهاز إلى

هاريت توبمان



■ ولدت في العام 1822 وتوفيت في العام 1913 واطلق عليها اسم محررة العبيد.

■ قامت بتحرير مئات العبيد ومنحهم حريتهم

■ جابهت السلطات الأميركية وجازفت بحياتها من أجل قضية حرية السود.

■ استبقت الحرب الأهلية بجعل مجتمع السود مهيباً للدفاع عن وجوده ومصيره.

■ كان شعارها الدائم إما الموت وإما الحرية.

الأول في بلدتها وهاربة من مالكاها، ومع ذلك عليها إنقاذ أعداد أخرى من إخوتها وأصحابها، وتهريبهم إلى حيث يجدون الحرية التي ينتظرونها. على أن الحفاظ على مصداقية الحقيقة التاريخية لسيرة هاريت لم يمنع بث العديد من الحكايات الخرافية، ومنها مثلاً اكتشاف أن حبيبها الذي اخلصت له وعادات من أجله متخلفة المخاطرات والمصاعب قد نسيها وتزوج من امرأة أخرى، وهو ما سوف يشكل صدمة بالنسبة إليها، وأما على الجانب الآخر وفي أوساط البيض فما يزال غيدوين يمارس فعل الابتزاز منتزعا ابني شقيقة هاريت لكي يكونا طعاماً يتم من خلاله جلب هاريت لغرض القصاص منها.

ولأن حوادث اختفاء المزارعين العبيد تتكرر وعلى الرغم من الحراس المشددة للمالكين يصبح من يقوم بتهريب العبيد مجرد كائن شبح ومن الصعب الإطاحة به ويطلقون عليه اسم موسى، وتنتشر إعلانات في كل مكان بوضع جائزة لمن يقبض عليه، لكن المفارقة سوف تظهر عندما يكتشف المكون البورجوازيون البيض أن موسى في حقيقته هو هاريت.

على أن تفشي ظاهرة هروب العبيد سوف يكون مفتاحاً سردياً مناسباً يتم من خلاله استعراض وقائع يومية لمجتمع محتقن ومأزوم، يعيش صراعا مع نفسه ويؤجج نزعة الكراهية ويمجد الانتقام، وهو ما سوف نشهده مع